سَاعَةً مِّن نَّهَارِ

د. محمد هشام طاهري
أبو صلاح

اعتنى به
غلام سرور بن عبد الغفار طاهري
أبو عمر

حقوق الطبع محفوظة للمعتني

الطبعة الثانية

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله العزيـز القهار، خلق الليل والنهار، وجعلهما ادَّكـارًا لأهـل الاعتبـار، وأشـهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شريك له جعل الدنيا كساعة من نهار، وأشـهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد الأبرار صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى آله وأصحابه الأخيار، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم القرار.

أما بعد..؛

فـإن هـذا الكتيـب هـي بعنـوان: ﴿سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾، وهـو جزءٌ مـن آية، وردت مرتـين في القـرآن الكريم، مرةً نكـرةً في سورةِ الأحقاف في قوله تعـالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقـاف:٣٥]، ومُعَرَّفـة في سـورة يونس في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس:٤٥].

وقَـد وردت كلمـة ﴿سَاعَةً﴾ نكـرةً في الموضعـين، وكلمـة ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ إذا جـاءت معرفـة فالمراد بهـا القيامة، وهـي ساعـة القيامـة، وإذا جـاءت نكـرة فـلا يـراد منهـا إلا برهة من الوقت قصيرة دون تحديد لها بالدقائق.

وأمـا كلمـة ﴿نَّهَارٍ﴾ فإنها جـاءت في الموضـع الأول نكـرة، والمعنى: عشـيته أو ضحـاه، وفي التنكير دلالة على أنهـا كانـت ساعةً مِن أي نهـارٍ من نهار الدنيـا سواء كانت طويلـة أم قصيرة، حلوة أم مرة، بـاردة أو حارة أو قارة... إلـخ؛ فكأنهم يوم يرون عذاب الله الـذي يَعِدُهم أَنَّه مُنَزِّلُهُ بِهِـمٍّ، يـرون أنهم لَمْ يلبثوا في الدُّنيـا إلَّا ﴿سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾؛ لأن شـدة مـا نزل بهم من عـذاب ينسيهم قَـدْر ما كانوا في الدُّنيا لبثوا، ومبلغ ما فيها مكثوا من السنين والشهور.

وأمـا مجيئها معرفـة فهو باعتبـار الاستغـراق؛ فيكون بمعنـى الأول، أو للعهـدِ فيكـون بمعنى جديـد، ويكون

المـراد: ﴿سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ يتعارفون فيما بينهم، ثم تنقطع المعرفة، تنقضي تلك الساعة.

وفي الآية دلالـةٌ قاطعةٌ على قِصَر الدنيـا الزائلة، وفناءِ هذه الدنيا.

والعجـب كل العجب أَنَّ مِن أعظمِ المُدْرَكات العقلية التـي اتفـق عليها عقلاء البشريـة فناء الدنيـا، وفناء الناس فيهـا، ومع هـذا نجد أغلـب الناس إلا من رحم الله أشـدَّ مـا يتكالبون ويتقاتلـون عليه إنما هو هـذه الدنيا، التي هم اتفقوا على أنهم هم سيرحلون عنها.

كيـف يدرك الإنسان قصر الزمان الذي أخبر الله تعالى عنه أنه كساعة من نهار؟

عندمـا يتأمل الإنسان ما قـد مضى من الأزمنة السابقة من عمره يدرك كأنها ساعةٌ من نهار.

وعندما ينظر إلى الواقع يجد أن هناك أناسًا في عمره من أغـماره وأترابه يموتون صبـاحَ مساءَ ويدفنون في الأرض،

فالواقع يدل على أن هذه الدنيا ساعةٌ من نهار، والناس عنها راحلون؛ فالفناءُ فيها مُشَاهَدٌ، وإلا ما وصلت إلينا.

ونحن نرى من ملك الدنيا بأجمعها من الصالحين كسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رحل عنها: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ [سبأ:١٤].

ونرى مَنْ مَلَكَ من الظالمين؛ كفرعون، ونمرود، وكسرى، وقيصر، وغيرهم، كلهم رحلوا عن الدنيا، وتركوها، وما أخذوا معهم منها شيئًا، كما جاؤوا بلا شيء ذهبوا بلا شيءٍ.

بل نحن نرى أن سيد الأبرار وسيد البشر محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإخوانه الأنبياء والمرسلين ماتوا، ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠]، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ [الأنبياء:٣٤]، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن

﴿قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]، فسيد البشر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات وذهب، وسادات البشر الأنبياء قد ماتوا، وذهبوا، وتركوا الدنيا.

ألا يكون لنا قولُ الله: ﴿سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس:٤٥]، مَوْعِظَةً؛ فنتأمَّلُ أنَّ هؤلاء السَّادات من البشر قد رحلوا من الدنيا، وما تنعموا فيها بالخلود؛ بل عاشوا فيها عيشة الابتلاء الشَّديد، الذي لم يكن له وجود فيمَنْ سواهم من البشر، بنص حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[(١)].

على الإنسان أن يتفكَّر ما قيمة هذه الدنيا التي نتكالب عليها؟! وكيف نتقاتل فيها بالزور، والكذب، والقيل، والقال، وكأننا مخلدون فيها آباد الآباد، وما هي إلا ساعةٌ من نهار، ونزولُ عنها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٧٠٧٨).

هل رأينا مخلدًا فيها؟

هـذا من أعجب مـا يكون، فكيـف نكون فيهـا من أهل الغرور، ونَكدّ لها كدَّ الشقاء، وما نحن فيها من أهل البقاء!؟

قد سلـك أناس وأقـوام كقـوم هود فصنعـوا مصانع كـما أخـبر الله: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء:١٢٩]، فـما نفعتهـم مصانعهـم التـي شَـيَّدُوها، وحصونهـم التي رفعوهـا، وقصورهم التـي بنوها؛ كأنهم مخلـدون فيهـا، باقـون في الأرض، فظنـوا أن البنـاء سبب لخلودهـم؛ فبحثـوا في دنياهـم عـن أسبـاب الخلـود؛ فلم يخلدوا مع مصانعهم؛ فكيف نخلد نحن؟!

ومهـما بحـث البشر فلـن يجـدوا دواءً للخلـود في دار الفناء، ولا مفر لهم من مفارقة الأحباء؛ فإن الدنيا كاسمها دارٌ دنيـة لا بقـاء فيهـا وليس فيهـا للخلـود دواء، أو ليس قـد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الله تَعَـالَى لم يُنْـزِلْ دَاء إلَّا أنْزَلَ**

لـهُ دَواءً، عَلِمَهُ مَـنْ عَلِمَهُ، وجَهِلهُ مَنْ جَهِلَهُ، إلَّا السَّـامَ، وهوَ المَوْتُ»[١].

فـإذًا ينبغـي علينـا أن نستعد للمعـاد، وأن نـدرك أننا مارُّون في الدُّنيا، كساعةٍ من نَّهار نقدم لحياتنا.

أحدنـا يدرس الابتدائية، ثم المتوسطة، ثم الثانوية، ثم الجامعـة، أكثرَ مِن سـتّ عشرة سنةً دراسيَّـة، يوميًّا لا يقل عـن خمس ساعاتٍ؛ لأجل ساعة من نهارٍ؛ كل ذلك لأجل لُعَاعَةِ الدُّنيا.

ماذا عملنا لآخرتنا؟ أين استعدادنا لها؟

ألا نخشـى ونحـن نهمل هـذا الأمر -عيـاذًا بالله- أن نكون كالذي يقول وقت الغَرْغَرَةِ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤].

(١) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٠٤).

أين الحياة؟

الحيـاة أمامنـا، وليسـت الحيـاة هـي الحياة التـي نحن فيهـا، يقول النبي الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كُـنْ فِي الدُّنْيَـا كَأَنَّـكَ غَرِيـبٌ، أَوْ عَابِرُ سَـبِيلٍ»[(١)]، تأمل هـذا التشـبيه البليغ من النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقارنه بأناسٍ يعيشـون بيننا غرباءَ، وأبناءَ سبيـل، انظر إلى من عندك من الغرباءِ، تركوا أوطانهم، وذويهم، وأهليهم، وجاؤوا لِلُقْمَةِ العيش، هل ترون أحـدًا منهم يعمل هاهنا كأنه مخلدٌ هنا؟ أبـدًا وإنما يأخذ ويرسـل، وأنت وأنا وكلنا نعمل حوالات للمستخدمين عندنا، ونرسل لهم كل كم فترة.

وماذا عنا نحن؟!

يجـب أن يكـون فرحنا بـما نقدم أعظـم مِـن فرحنا بما ندَّخِـر في أرصدتنـا، كفـرح العامل بـما يرسل لـداره التي تركها، أعظم من فرحه بما يصرف من راتبه.

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

ولذلـك فإنَّ ابن عمـر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فهم هذا المعنى: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»؛ فكـان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا «إِذَا أَصْبَحَ لَا يَنْتَظِرُ الْمَسَاءَ»، أي: لا يؤخر عملًا يريـد أن يعملـه إلى المسـاء، يعمله مباشرة؛ لأنه يخشـى ألا يُمْسي، «وَإِذَا أَمْسَى لَا يَنْتَظِرُ الصَّبَاحَ»، أي: لا يؤخر عمل المسـاء إلى النهـار، انظـر إلى التطبيق، وتأمَّـل الحرص على ساعـة العُمُرِ الدنيوي؛ ولهذا ينبغي على الإنسان أن يعمل؛ لأنه في ساعة النهار هذه.

كيف نستعد لآخرتنا؟

بزيادة اليقين، والتأمل، والتفكر، والتدبر.

قـال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾

[النازعات:٤٢-٤٦].

كيف نستعد لما نحن مقبلون عليه؟

بالزيادة من العمل، والله لو قيل لأحدنا: إن لك ترقية بشرط أن تدخل دورة مكثفة، أو زيادة راتب بشرط أن تداوم زيادة ساعات، نجد الناس اليوم يتكالبون على زيادات العمل، وعلى الترقيات، لكن أين زيادة أعمالنا لأجل الدرجات في الجنات؟

إنَّ من أعظم الأمور التي تجعل الإنسان لا يغتر بدار الغرور، ويستعد لأن يكون من أهل الجنة، أن يكون زاهدًا ورعًا في الدنيا.

وأعظم الزهد وحقيقته: ألا تتشوَّف النَّفْسُ إلى ما لا تملك، وأن تستخدم ما تملك في المباح، هذه حقيقة الزهد.

وأمَّا الورع: فهو أن يترك الإنسانُ ما لا بأس به؛ خشية أن يقع فيما فيه بأس.

وإذا كنا قد تيقنا أننا في ساعةٍ من نَّهارٍ؛ فالواجب علينا الحرصُ على هذه الساعـات؛ فهي والله لا تعود، وهي من عمرك معدود، وأنت عليها الآن محسود، وغدا بها كؤود.

تأمـل معـي: لـو أن إنسانًا دَخَـلَ الاختبـارَ، وقيل له: إن مـدة الاختبـار ساعة؛ فكيـف سيحل بسرعـة، ويجتهد بسرعة، وينشـغل عن كل شيء باختبـاره ساعة، ولو جاءه هاتـف لن يـردَّ خـوف الصَّوارف عـن ساعـة الامتحان، ولـو جاءه شـاغل لن يلتفت خـوف المعوِّقـات عن ساعة الامتحان.

لماذا؟ لأنها سـاعةٌ فيها نجاحه ورسوبه، ساعةٌ يـراها سعادته وشقاوته.

ورب العزة أخبر عن بقاءنا في دنيانا: ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس:٤٥]، هذا خبر الله جل في علاه.

وقولـه تعالى: ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقـاف:٣٥]، نكرة، قيل: إن مكـث الإنسـان في الدنيا كساعة من نهـار أيام الآخرة، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحـج:٤٧]؛ فإذا كان اليوم عنـد الله كألف سنة مما نعدُّ، فلو عـاش الإنسان مئة سنة فعمـره بالنسبة لألف سنة يساوي عُـشْرًا، وإذا كان عُشْرًا بالنسبـة ليوم من أيام الله، وأيام الله خالدةٌ تالدةٌ آبدةٌ لا نهاية لها؛ فكم ستكون مدَّة مكثه وبقائه في هذه الدنيا؟ ساعةً من النَّهار.

قَـالَ قَتَـادَةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فِي الدُّنْيَـا، وَهِـيَ مَوَاطِـنُ، قَالُوا: ﴿إِلَّا يَوْمًا﴾ [طـه:١٠٤]، و﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ [طـه:١٠٣]، ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنـون:١١٣]، وقَـالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعـات:٤٦]، وقَـالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقـاف:٣٥]، وقَـالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ

﴿ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم:٥٥] يَحْلِفُ الْمُجْرِمُونَ الْمُشْرِكُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ، أَيْ: فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لِتَصَاغُرِ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ وَقِلَّتِهَا فِي طُولِ الآخِرَةِ.

قال المفسرون: ليس هذا بتناقض؛ لأن مكثهم في الدنيا لا يساوي إلا ساعة من نهار بالنسبة للآخرة الأبدة، ومن قال منهم: ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]، فلظنه، أو بالنسبة إلى طول عمره أو قصره، ومن قال: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه:١٠٣]، فهذا اجتهاد منه؛ فالكفار إذا حشروا وصاروا في دار القرار اسْتَقَلُّوا مدة مكثهم في دار البوار، حتى إنهم يقولون: كأنها قدر ساعة من نهار؛ فالآيات مقتضية أنَّ الدُّنيا عندهم كانت قصيرة، إلى درجة أن كل واحد منهم أصبح يَسْتقِلُّ مدَّة مكثه في هذه الدنيا، ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون:١١٣].

ومصداقه مـن حيث النظرة العمليـة في الحديث، قال ﷺ: «**يُؤْتَـى بِأَنْعَـمِ أَهْـلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْـلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

ضـع خيالـك في جميع نعـم الدنيا، هـذا الرَّجـل أنعمُ إنسـان؛ مُلْكًـا وتيسيرًا، صحـةً وأولادًا، جمـالًا وَتَرَفُّهًا... إلـخ؛ «**فَيُصْبَـغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَـيْرًا قَـطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُـولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ**»، من شدة ما يرى من الهول، علاوة على الدوام المقيم إن كان من الكافرين.

«**وَيُؤْتَى بِأَشَـدِّ النَّاسِ بُؤْسًـا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»، تخيل نوع بؤس هذا الرجل، مسجونٌ ظلمًا، مريضٌ عجزًا، فقيرٌ مبتلًى، محتقرٌ مزدجرٌ، أيًّا كان، تأمل إلى حاله؛ «**فَيُصْبَـغُ صَبْغَـةً فِي الْجَنَّـةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًـا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِـدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ**

قَـطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِـدَّةً قَطُّ»[١]، لما يـرى من النعيم، وهو فيها مقيم، وما يرى في دار الخلود في دار الحبور والسعود.

فالواجـب: عـلى الإنسـان أن يفكِّر ويستيقـن أن هذه الأيـامَ ساعةٌ من نَّهـارٍ؛ فكيف يغفل عنهـا؟! ساعةُ اختبارٍ فكيف لا يغتنم لحظاتها؟!

مما يؤسفُ الإنسانَ أن يرى:

مسنًّـا في يـده آيبـاد أو هاتف ببرامجـه يلعـب، أو أمام التلفزيـون ببرامجـه غـير الهادفـة يلهـو، ويضيـع أوقاتـه بـلا ذِكْـرٍ ولا تـلاوة، مهمـلًا سبهلـلًا، عبثًا يضيـع وقته، ورِجلُه مشرفة على القبر.

وشـابًّا يضيـع لحظـات حياته فيما لا ينفـع، ولا يعرف هدفـه في ساعـة الاختبـار هـذه فبذكـر الله لا يرتـع، ومن شهوات الدنيا لا يشبع.

(١) رواه مسلم (٢٨٠٧).

وشابَّةً مشغولة في الذهاب والإياب، والاهتمام بالمنظر الـذي سيأكله الدود بعد ساعـات من الدفن، وبعد أيام في الرمس.

وامـرأةً في الأسواق، خراجة ولَّاجة، وعن أولادها في شـغل وحاجة، وبمجالسة صديقاتها لجلاجة، وعن ساعة عمرها مرتابة.

هل عندنـا صكوك للبقاء في هذه الدنيـا الفانية؟! هل عندنـا ضمان أنَّـا نعيـش إلى الفجـر؟! أو إذا أصبحنا نبقى إلى العـصرِ؟! أم أن ساعـة نهارنـا ربـما في أي لحظة تنقضي شمسها، ويأفل ضوؤها، ويظلم ليلها؟!

إذا كانـت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد؛ فما أسرع ما تنفد، نعـم... إننا إذا عددنا أيام عمرنا نجدها معدودة، وإذا كانت معـدودة فهي محدودة، وإذا كانت محدودة فهي منقضيـة منتهيـة مسـدودة؛ وذلـك أن آخرَ العـدد خروج

نفسك، وفـراق أهلك، ودخول قبرك؛ كـما قال الله تعالى:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١]؛ والله تعـالى يذكر قيام الساعـة على سبيل المضي لتحققه وقربه.

فالإنسـانُ المعتـبِرُ، الإنسـانُ المتعِظُ، يـدرك أن أنفاسه معـدودة، فيحاسب نفســه، ويضبط حياته؛ لأنـه يعلم أن الحياة أمامه، وليست الحياة هي هذه الحياة؛ لأنها موصوفة بالدنيا.

والعجـب أن المسلمين والمنافقـين واليهود والنصارى والوثنيـين كلهم يسمون الدنيـا بالدنيا، فتأمـل كيف وقع الاتفاق على دناءتها بدون تواطُؤٍ منهم.

مـا رأينا أحدًا منهم يسمي هـذه الدنيا بدار الخلود، ما رأينـا أحدًا منهم يسمي هذه الدنيا بـدار السعادة، أطبقت الأمم من الإنس والجن على أنها دنيا، دنيئة، فعلام التناكب

عليهـا، والتكالـب على مـا فيها؟! وهي دنيـا نيئة، فليست رفيعـة، ولا شريفـة؛ بـل الرفيعة هـي الآخـرة، والشريفة هي مقامـات وشرفات الجنة، أما هنا فهي دنيا دانية قريبة، ثم عاليـة رفيعة وهي الجنة الدانيـة للمؤمنين، وللصادقين العاملين.

مرَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذي الحليفة، على شاة ميتة شائلة برجلهـا، فقال: «**أَتُرَوْنَ هَـذِهِ هَيِّنَة عَلَى صَاحِبِهَـا؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللّه مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَوْ كَانَـتِ الدُّنِيَـا تَزَنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَـقَى كَافِرًا مِنَهْا قَطْرَةً أَبَدًا**»(١).

فينبغـي علينا أن نـدرك أن هذه الأيـام منقضية، وهي مـدة يسـيرة، ومكثها قليل؛ لأن الله صـدَّق من أخبر أنه ما

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١١٠) وصححه الألباني.

مكـث إلا قليلًا، قال الله تعالى عنهم: ﴿ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٤].

فمدة مكثنا في الدنيا قليلة جدًا بالنسبة إلى مدة الخلود، سـواء في الجنة -جعلنا الله من أهلهـا- أو في النار -أعاذنا الله منها-.

﴿ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المؤمنون:١١٤]، وفي قراءة: ﴿قُلْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وربنـا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمـا رأى الكفَّـارَ يستفـزُّون النَّبـيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويريدون منه أن يدعو عليهم، قال له: ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۖ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الأحقـاف:٣٥]؛ فالدنيـا فانيـة؛ لذلك جاء النهـي عـن طلب تعجيل العـذاب لهم، موضحًـا في آيات آخـر؛ كقوله تعـالى: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ

قَلِيلًا ﴾ [المزمل:١١]، وقوله تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق:١٧].

الناس يتعجبون من حلم الله على الكافرين، ومن حلمه على المشركين؛ لكنها في الواقع عند الله ليست إلا ساعةً من نَّهار، وربما كان هذا من عدل الله؛ لأنَّ ساعةَ الاختبار لم تنقضِ، وهي بالنسبة إلى الله العزيز العليم الحكيم ساعة فتركهم، كما يترك المختبِرُ الممتحَن ساعةً في الاختبار، ومهما فعل لا يبالي أخطأ أو أصاب حتى ينتهي الاختبار، فيحاسبه بعد ذلك على إساءته وإحسانه.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ [المزمل:١١]، وقال: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق:١٧]، وقال: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم:٨٤]، وقال: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان:٢٤]، وقال: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى

ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس:٦٩-٧٠].

جاء في بعض الآثار: أن نبي الله نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي عُمِّرَ ما لم يُعَمَّرْ أحدٌ، مكث فقط في الدعوة ألف سنة إلا خمسين عامًا!؟ كم كان عمره قبل النبوة؟ كم صار عمره بعد النجاة وبعد الطوفان؟ الله أعلم؛ لكنه عمِّر عمرًا مديدًا، قيل له: يا أطول الأنبياء عمرًا، وأكثرهم عملًا، كيف وجدت الدنيا؟ قال: كَبيْتٍ له بابان، دخلت من باب، وخرجت من باب[1].

---

(١) «الهداية إلى بلوغ النهاية» للمكي (١٢/ ٧٧٢٨)، «المدهش» لابن الجوزي (ص٣١٣).

وتأمـل في حياتـك: إن كنـت مِـن أهـل العشرين، أو الثلاثـين، أو الأربعـين، أو الخمسـين، أو المئـة؛ كأنـك ما مـضى عليك إلا ساعـاتٌ، يتعجَّبُ الإنسان مِـن ذِكرياته، كيـف مضت هذه الذكريات عليـه؛ كأنها لمح البصر، كأنها لويحظاتٌ، كأنهـا دُقَيْقَاتٌ؛ فكيف يغـتر الإنسان بأيام هي عنـد الله ساعـة، وعُمْـرٍ عنـد الله محـدود، وأجـلٍ عند الله معدود.

يقـول ابـن القيـم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قـال لنبيـه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر:٣]، وفي هـذا تعزيـة لمـا منعه أوليـاءه من التمتع بالدنيا، وكثرة الأكل فيها، وتأديبٌ لمن بُسط له فيها ألَّا يطغى فيها، ولا يعطي نفسه شهواتها، ولا يتمتع بها.

ولَامَ سبحانـه محبيهـا المفتخريـن بهـا، المكاثريـن بها، الظانِّـين أنَّ الفضل والكرامـة في سعتها وبسطها؛ فأكذبهم

الله سبحانـه وأخبر أنه ليس كما قالوه، ولا توهموه، ومثَّلها لعبـاده بالأمثلـة التـي تدعـو كـل لبيـب عاقـل إلى الزهد فيهـا، وعدم الوثوق بها، والركـون إليها؛ فأحضر صورتها وحقيقتها في قلوبهم بما ضربه لها مثلًا؛ كماء أنزله من السماء فخالـط نبـات الأرض، فلـما أخـذت بـه الأرض زخرفها وتزينت بأنـواع النبات أتاها أمره فجعل تلـك الزينة يَبَسًا هشيمًا تذروه الرياح، كأن لم يكن قط منه شيء.

وأخـبر سبحانه عن فنائها وسرعـة انقضائها، وأنه إذا عايـن العبد الآخرة فكأنـه لبث فيها ساعة من نهار أو يومًا أو بعض يوم.

ونهـى سبحانه عباده أن يغتروا بهـا، وأخبرهم أنها لهو ولعـب وزينة وتفاخر وتكاثر ومتـاع غرور وطريق ومعبر إلى الآخـرة، وأنهـا عـرض عاجـل لا بقـاء لـه، ولم يذكـر مريدهـا بخير قط، بل حيث ذكره ذمـه، وأخبر أن مريدها

مخالـف لربه تعالى في إرادتـه؛ فالله يريد شـيئًا ومريد الدنيا يريـد خلافه؛ فهـو مخالـف لربه بنفـس إرادتـه، كفى بهذا بعـدًا عنه سبحانـه، وأخبر سبحانه عن أهـل النار أنهم إنما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيها لهم)[١].

روي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: (تُجْمَعُون جميعًا فيقال: أين فقراء هذه الأمة ومساكينها؟ فيبرزون.

فيقال: ما عندكم؟

فيقولـون: يا ربنا، ابتلينا فصبرنا، وأنت أعلم، ووليت الأموالَ والسلطانَ غيرنا.

فيقال: صدقتم.

قـال: فيدخلون الجنة قبل سائر النـاس بزمان، وتبقى شدة الحساب على ذوي الأموال والسلطان».

---

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص١٩٦).

قلت: فأين المؤمنون يومئذ؟

قال: «يوضع لهم كراسي من نور، ويظلل عليهم الغمام، ويكون ذلك اليوم أقصر عليهم من ساعة من نهار»[١].

وهـذا فيه حديث مرفـوع عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ**»[٢]، فوالله ما ندري من أي الأعوام هي من أعـوام الله؛ فواحسرتاه، من أيام الدنيا فوالله خسارة أيضًا، أن يسبقونا إلى الجنات، لانشغالنا بالملذات الدنيوية الفانية المنغصة المشوبة.

والسلـف أدركوا هـذا المعنى؛ فكـان أحدهم أحرص عـلى وقته من حرصنا على دنيانا، كان أحدهم أحرص على العبادة من حرصنا على ذهبنا.

---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٧١٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٥٤) وقال: حديث حسن صحيح.

والله نجد الناس اليوم يضعون الذهب والأموال في البنوك، وفي الأماكن المحفوظة المصونة، ويضيعون ساعات عمرهم؛ كأنها لا تساوي شيئًا؟!

بل إن بعضهم -وهم المفاليس- يقولون: عندنا فراغ لا نعلم ماذا نفعل؟

يا مسكين إذا كان عندك فراغٌ ادخل واجلس في المسجد. في بيت الله تعالى، اذكرِ الله تعالى، واقرأ القرآن، واللهِ جلوسك في المسجد خير لك من الدنيا وما فيها.

الكلام كثير حول هذه المسألة العظيمة التي يدركها كل عاقل، فما أيامنا في الدنيا إلا كساعة من نهار، يقول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

الإنسـان العاقل يتفكر ويتأمل لـو يعيش مئة سنة، ثم بعـد ذلك لا يحس إلا أنهـا ساعةٌ من نَّهار؛ كما أننا لا نحس ولا ندرك تسعة أشـهر في بطونٍ أمهاتنا؛ فوالله لا ندرك كم سيكـون مكثنـا في هذه الدنيا، لا نتذكر شـيئًا؛ كما أن الذي يُصْعَـقُ ثـم يُبعث لا يُـدرك كم مكـث، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة:٢٥٩].

وأصحاب الكهف ماتوا فمكثوا في الكهف ثلاث مئة على العد القمري، وازدادوا تسعًا على العد الشـمسي، وما أحـسَّ أحدُهم أنهم لبثوا هذه المدة الطويلة مع استنكارهم لحـال أنفسهـم، ومـا حسـوا ولا شـعروا ولا عرفـوا، ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩].

وجاء في الحديث عن حال الرجل الصالح بعد سؤاله في قبره: «**يَفْتَحُون لَهُ بابًا في قبره إِلَى الْجَنَّةِ؛ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي**»[1].

رأى أحد الملوك رجلًا عليه آثار الفقرِ المدقع: ثيابه مرقعة، رأسه أشعث، وجه جائع؛ فأمر عساكره فأتوا به؛ فأمر له بغسلٍ وطِيبٍ وثيابٍ وطعامٍ وشرابٍ وفراشٍ وثيرٍ؛ فلما أصبح قال: ائتوني به؛ فلما جاءوا به، قال له الملك: كيف أصبحت؟

قال: أيها الملك، ليلةٌ مضتْ.

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٨٥٣٤).

قـال: أمجنون أنـت، أكرمناك، وأطعمنـاك، وأترفناك، وتقول: ليلة مضت.

قـال: إن كنت عملتهـا لله؛ فهي باقية لـك، وإن كنت عملتها للجاه فهي عليك، وبالنسبة لي هي ليلة مضت.

قـال: خـذوه وعذبـوه؛ فأخـذوه وعذبـوه وسجنـوه وجوَّعُـوه؛ فلما أصبح قال: ائتـوني به؛ فلما جيء به قال له: كيف كانت ليلتك؟

قال: ليلةٌ مضت.

قال: أبك جنون؟

قـال: بالنسبـة لي ليلـة مضـتْ إن كنـتُ صابـرًا كنتُ مأجـورًا، وإن كنـت جَزِعًـا كنـت مـوزورًا، وبالنسبة لك إن كنـتَ محقًّا فأنت مثاب، وإن كنـت ظالمًا فأنت معاقَبٌ، عملت ما عملت لنفسك لا لي.

هـذه النظرة هـي التي ينبغي أن تكون منـا لهذه الدنيا، ومـا يجـري فيهـا؛ ولهذا فـإن النبـي ﷺ وضع لنا نظامًـا عظيـمًا: «**كُـنْ فِي الدُّنْيَـا، كَأَنَّـكَ غَرِيـبٌ، أَوْ عَابِـرُ سَـبِيلٍ**»[(١)]؛ فلا ينبغـي لعبد مسلم أن يغـتر برخاء، ولا أن يأمل بقاء الدنيا، وليعوِّد نفسَه على الرضا بالقضاء، ويجب عـلى الإنسـان أن يجتهـد، وأن يبذل قصـارى جهده كيف يعمـل لآخرته، يقول الله تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر:٥]؛ فالواجب الحذرُ مـن الاغترار بالدنيا، والاغترار بالشـيطان؛ فهـما مـن أعظم أسبـاب الغفلة في هـذه الحياة الدنيا عن آخرتنا، وعما نحن مقبلون عليه.

ولنختـم حديثنا عـن ﴿ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الأحقاف:٣٥] بحديـث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي فيه بيان لأول ليلةٍ

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

في عـالم ما بعد الدنيـا الفانية، عالم الـبرزخ، في القبر، يقول الـبراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: خرجنـا مـع النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في جنازة رجـلٍ من الأنصـار، فانتهينا إلى القبر، ولمـا يُلْحَدْ، فجلس رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطـيرُ، وفي يده عودٌ يَنكُت في الأرض، فرفع رأسه، فقال: «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ -مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا-».

ثـمَّ قـال: «إِنَّ الْعَبْـدَ الْمُؤْمِـنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَـاعٍ مِـنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُـوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّـمْسُ، مَعَهُـمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّـةِ، وَحَنُـوطٌ مِنْ حَنُـوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُـوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَـرِ، ثُـمَّ يَجِـيءُ مَلَكُ الْمَـوْتِ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِـسَ عِنْدَ رَأْسِـهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ»، قال: «فَتَخْرُجُ تَسِـيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّـقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَـا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَـيْنٍ حَتَّـى يَأْخُذُوهَـا، فَيَجْعَلُوهَـا فِي ذَلِكَ الْكَفَـنِ، وَفِي ذَلِكَ

الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ»، قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى».

قال: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ

وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ:أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ».

قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ»، قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي».

قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ»، قَالَ: «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ،

فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ»، ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]، فيقول الله تعالى: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا»، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟

فَيَقُولُ: هَاهَ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»[1].

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ألا يجعلنا من المغترين بالدنيا الفانية، وألا يجعلنا من أبنائها، وأن يجعلنا من أبناء الجنة الباقية، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

د. محمد هشام طاهري

دولة الكويت -حرسها الله-

في يوم الخميس ٧/٧/١٤٤٠هـ

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٨٥٣٤).